بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

درج الباحثون في قضية التربية الإسلامية ،أو بالوصف الأكثر تحديداً، **المنهجية الإسلامية للتربية والتعليم**، درجوا علي أن يتناولوها في إطار « البحث التاريخى »، كما أصبح مستقراً فى السياسات التعليمية لكليات التربية فى جامعاتنا أن تدرج الحديث عن التربية الإسلامية فى مقررات مادة « تاريخ التربية »، حيث يستعرض الباحث عدداً من المجهودات الإسلامية في تراثنا الكبير مما يتعلق بموضوع : التربية والتعليم ، وإن جاءت معظم هذه الأبحاث كنوع من إثبات الوجود، أو الاعتداد بتراثنا الإسلامي أكثر من محاولتها البحث عن **نظرية إسلامية للتربية** أو قاعدة أو فلسفة ، تصلح للبناء عليها في مسيرتنا التربوية الحاضرة والمستقبلية .

وحتى الأبحاث القليلة التي حاول أصحابها التعاطي مع تراثنا التربوي من زاوية البحث الفلسفي أو من زاوية « التنظير »، اضطرت إلى الانسحاب نحو « العمل ألتأريخي »، من خلال البحث عن الروافد الفلسفية الأجنبية التي أثرت في اتجاهات الفكر التربوي عند المسلمين، الأمر الذي دلّ – في عميق دلالاته – على غياب تصور وجود نظرية تربوية إسلامية تصلح لضبط وترشيد نظامنا التعليمي المعاصر.

هذا في جانب الفكر والبحث النظري، أما علي صعيد الممارسة والتطبيق، فقد استقر العرف المنهجي في نظامنا التعليمي المعاصر علي تحديد « منهج التربية الإسلامية »، بمجموعة الكتب والمقررات الدراسية التي تشمل نتفاً من العلوم الدينية، كالقرآن والحديث، والسيرة، والفقه، وبالإضافة إلي هذا « الإخلال »

الواضح بشمولية مفهوم «التربية الإسلامية» فإن هذه «النتف» من العلوم الدينية، لا تقدم للطلاب بوصفها «علوماً» لها قواعدها ومناهجها، وآليات النظر فيها، وإنما تقدم للطلاب، بوصفها شحنات إيمانية،تعزز – وفق التصور السائد – من الشعور الديني لدى الطلاب.

لقد كان من الواضح عند التأمل والفحص، في فكرنا التربوي المعاصر، علي صعيد النظر وعلي صعيد التطبيق، أن «**العلمنة**» **قد نفذت إلي صميم نظامنا التعليمي، وأحدثت الشرخ الكبير الذي عزل علوم الدنيا، عن علوم الدين، وفتتت – بالضرورة – الإطار ألقيمي والأخلاقي والروحي الذي كان يحكم ويرشد نشاطنا التعليمي كله.**

ومن ثم؛ يجئ كتاب الدكتور زغلول راغب النجار «**أزمة التعليم المعاصر.. وحلولها الإسلامية**»، والذي نقدمه ، علي طريق «إسلامية المعرفة»، يجيء هذا الكتاب ممثلاً لنقلة نوعية في الدراسات التربوية الإسلامية المعاصرة، حيث يجهد في استجماع معالم نظرية تربوية إسلامية، تصلح كبديل إسلامي جاد وعملي، للنظريات والمنهجيات التربوية السائدة اليوم في ديار الإسلام، والتي تنتمي بأصولها الفلسفية وقيمها الإنسانية إلي مذهبيات وأفكار مستوردة، بعيدة عن الأصول العقائدية والقيمية المستقرة في الضمير الإسلامي العام، في الفرد، وفي المجتمع.

وفي خلال ذلك الجهد المتميز للمؤلف، يتعاطى مع التراث التربوي الإسلامي، لا علي سبيل البحث التاريخي، وإنما علي أساس نقل ذلك التراث الخصيب من بطون الكتب ومطويات التواريخ إلي قلب معترك الواقع للعالم الإسلامي المعاصر، حيث يتم التلاقح العلمي وتنشيط حركة الفرز في كلا الطرفين: التراث والواقع، ليخلص الفكر التربوي الإسلامي في نهاية المطاف بنظام تعليمي إسلامي، تمتزج في منهجيته العامة **مقتضيات الأصالة والمعاصرة.**

وعملية «الفرز»، هذه أصبحت اليوم ضرورة، لا فكاك منها للفكر الإسلامي بوجه عام، والفكر التربوي الإسلامي بوجه خاص، وذلك أن المفترض

في فكرنا المعاصر أنه قد تخطى الآن مرحلة الصدمة الحضارية الكبرى التي انكشف فيها أمام التفوق المدني الأوربي الهائل علي مختلف الأصعدة، تلك الصدمة التي أربكت العقل الإسلامي العام، واستقطبت مدركاته التصويرية إلي زوايا حادة غير متزنة، دفعت ببعض أطرافها إلي رفع شعار التراث، وإعلائه إلي حد القداسة، وافتراض أن الحل للخروج من مأزقنا الحضاري، يكون بنقل ذلك التراث برمته ليصوغ حياتنا الحاضرة، ويحكم حركتنا الاجتماعية، بينما ذهبت أطراف أخرى إلي رفض التراث جملة، وافتراض أن الحل يكون بنقل الواقع الأوربي الحديث فكراً وقيماً وتمدناً، إلي واقعنا الإسلامي، ليحكم ويوجه حركتنا الحضارية. ليس من شك أن فكرنا الإسلامي قد تجاوز- إلي حد كبير- مرحلة الصدمة وفقدان التوازن، الأمر الذي يجعل لمجهودات الفرز والنقد والتمحيص مكان الصدارة في دراساتنا الجديدة. **فعلي صعيد الفكر التربوي، ليس كل ما فيه واقعنا التعليمي المعاصر يمثل فساداً وانحرافاً، بل فيه من الجهود والأفكار، فضلا عن التقنيات والتنظيمات، ما هو عظيم الأهمية للنهضة التعليمية الإسلامية المرجوة.**

كذلك فليس كل تراثنا التربوي نقياً من **الوجهة الإسلامية، ولا سوياً من الوجهة المنطقية والعلمية**، ففيه من النظريات والأفكار التربوية ما يمثل خروجاً علي القواعد التصورية الإسلامية، بفعل التأثر بفلسفات التراث الإغريقي والهيليني الذي انتشر في الحضارة الإسلامية بشكل واسع منذ القرن الهجري الثالث.

ومثال ذلك النظرية الشائعة عند «ابن سينا» وغيره، والتي تذهب إلي أن الإنسان عند مولده يكون «كالصفحة البيضاء» لم ينقش فيها شيء، حتى يتحصل الأفكار والمعاني بالتجربة والممارسة وبطريق الحواس، وهذه النظرية مازالت تمثل أحد قطبي الفلسفة التربوية السائدة في الفكر التربوي الأوربي الحديث، حيث يمثل نقيضها القطب الآخر.

والقاعدة الإسلامية، تفترض التميز بين «العلوم» المكتسبة، وبين المعاني

الكلية الفطرية، فالأولي هي التي يتم تحصيلها بطريق الحواس، ويصدق عليها وصف «الصفحة البيضاء»

قال تعالي: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل: ٧٨].

بيد أن هناك من المعاني والأفكار «الفطرية» تولد مع الإنسان- حين مولده- بغير كسب منه ولا إرادة، وذلك نبض القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة:

قال تعالي: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقال رسول الله ﷺ «**كل مولود يولد علي الفطرة، حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» (رواه مسلم).

كذلك فقد وقع بعض الخلل في مدارك المفكرين التربويين المسلمين قديماً، في تصور طبيعة العلاقة بين مفهومي: العلم والعبادة، إذ أن مفهوم «العبادة» قد انتهي به الحال إلي ضيق غريب في الفهم علي التصور الإسلامي الأصيل له، جعله مقصوراً علي الشعائر التعبدية الخالصة، ولم يتعد إلي المفهوم الشامل لها، وهو كل جهد إسلامي مخلص، يتوجه إلي تحقيق أمانة الاستخلاف، وعمران الأرض، وتحقيق عزة الإسلام والمسلمين، باستجماع إمكانات القوة علي مختلف الأصعدة.

وكان من آثار ذلك الضيق في فهم العبادة، علي مستوى الحركة التعليمية في تراثنا المتأخر بوجه خاص، **أن ضعف الحافز الديني للانطلاقة العلمية الشاملة في ميادين «العمران»**، حتى أن بعضهم، عندما بحث عن مستند شرعي يبيح دراسة «علم الحساب»، ربطه بضرورة تحصيله لمعرفة الفرائض (المواريث) وتقسيماتها، وعلي ذلك نفس سائر العلوم، وهو الأمر الذي كان سبباً رئيسياً في جمود وتخلف حركة التمدن الإسلامي.

علي جانب آخر؛ ثمة مفارقة تحتاج إلي تأمل، فيما يخص تراثنا التربوي

الخصيب، وتلك أن البحث التاريخي المعاصر، في تراثنا التربوي، يقف اليوم علي مجهودات عظيمة، كانت - إلي عهد قريب - مجهولة، حتى للمستشرقين، علي سعة إطلاعهم، وطول صبرهم علي البحث، وأصبح الباحث التربوي يواجه حشداً من الأسماء ذات الجهود في التأليف التربوي في التراث، أمثال **محمد بن سحنون، والقابسي، والآجري، والخوارزمي، وابن سينا، ومسكويه، والغزالي، وابن عبد البر، والزرنوجي، وابن جماعة، وابن خالدون، وشمس الدين الانبابي، وابن حجر الهيثمي، وابن رجب البغدادي**، وغيرهم ممن يكشف عن جهودهم وتراثهم النقاب كل يوم.

ولقد جاءت من هذا السلف المجتهد، للفتات البارعة في الفكر التربوي، مما لم يألفه الفكر التربوي العام إلا في وقت متأخر، وبعد النشاط التجريبي للفكر التربوي الأوربي الحديث، فقد عالج «المسلمون» **مسألة التعليم الإلزامي**، منذ وقت مبكر، حتى **أن القابسي (توفي ٤٠٣ هـ)** قد طرح للبحث مسألة «إذا منع الوالد ولده عن الكتاب، هل للإمام أن يجبره؟» وطرح - أيضا- مسألة ضربه أو سجنه عقاباً له علي ذلك!

وقد عالج «ابن سينا» (ت٤٢٨ هـ) مسألة من دقائق علم النفس التعليمي، أنقلها بنصها لدقة البيان حيث يقول: «ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له ومواتية، لكن ما شاكل طبعه وناسبه، وأنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب، وتنقاد بالطلب والمرام، دون المشاكلة والملائمة، إذن ما كان أحد غفلاً من الأدب، وعارياً من صناعته، وإذن لأجمع الناس كلهم علي اختيار أشرف وأرفع الصناعات... ينبغي لمدير الصبي إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولا طبع الصبى ويسير قريحته ويختبر ذكاءه فيختار له الصناعات بحسب ذلك» ا.هـ.

ولكن رغم ذلك، ومع وجود هذا الميراث التربوي الراشد والخصيب، فإنه لم يحدث أن أتت في التراث «نظرية إسلامية متكاملة» للنظام التعليمي، وهي الظاهرة التي تطرح علي الذهن سؤالها: لماذا غاب التنظير عن مبحث التربية والتعليم في التراث؟

والأمر الذي يسبق إلي الذهن، ونحن بصدد الإجابة عن هذا السؤال الهام،

أن الفكر التربوي الإسلامي، في تراثنا القديم، لم يحدث أن واجه «ازدواجية» في النظام التعليمي، سواءاً في أصوله أو في مناهجه، والاختراق الفلسفي الأجنبي، لم يصل إلي البناء الاجتماعي الإسلامي أبداً، وبالتالي؛ لم تحدث مزاحمة بين النسق التربوي الإسلامي وأية أنساق تربوية أخرى، مما أدى إلي انصراف الفكر التربوي، إلي المعالجات التجزيئية والتطبيقية في فروع المسائل ودقائق المشكلات التعليمية والتربوية، ولم يجعل فكرنا التربوي التراثي- بالتالي- بموضوع التنظير، والذي هو جهد يمثل استجابة للتحدي والمزاحمة ولا يولد - علي أي صعيد - إلا إذا أستنفر.

وبالتالي؛ فإن غياب «النظرية المتكاملة» كبحث ودراسة مستقلة، في تراثنا التربوي، لا يمكن أن يمثل قدحاً في ذلك التراث، ولا عيباً فيه، إلا إذا انتزعنا الظاهرة من سياقها الحضاري، وخلفيتها التاريخية، وأيضاً، فإن هذه الظاهرة، لا تجعلنا- نحن المعاصرين- في حلٍ من «التنظير» لفكرنا التربوي الإسلامي، وذلك أن الحال قد تبدل، والظرف التاريخي قد اختلف، وإذا كان من المقرر أن اللحظة التاريخية هى التى تفرض شروطها ومتطلباتها ، فأن اللحظة التاريخية التي يمر بها البناء الاجتماعي الإسلامي المعاصر، تفرض- في أعلي شروطها- إعادة النظر في فكرنا التربوي ونظامنا التعليمي، وفي مقدمة فروض هذه اللحظة، **ضرورة استجماع وبلورة معالم النظرية الإسلامية للتربية والتعليم، وذلك أن الخرق قد وقع في البناء الاجتماعي بفعل الغزو الثقافي الأجنبي**، كما أن المزاحمة بل الطرد قد حدث في مجال النظرية التربوية، علي النحو الذي ألمحنا إليه في تلك المقدمة، وبالتالي؛ يصبح التعود عن إنشاء وبلورة النظرية التربوية الإسلامية، ومنهجيتها ، واستراتيجيتها بمثابة عجز وشلل علمي، ومن ثم؛ تقصير في حق أجيالنا المقبلة.

إن الجهد المخلص المنصرف باتجاه تحقيق إسلامية نظام التعليم في ديار الإسلام ، تتجسد أهميته القصوي ، بالنظر إلي كونه المدخل الشرطي لتحقيق وترسيخ رسالة «إسلامية المعرفة» بوصفه الجهد المنوط به بناء الشخصية الإنسانية

عـقليـا ووجـدانيـا التى تـستطيع وحـدها حـمل لواء هذه الرسـالة، وضـمـان استمراريتها في المستقبل، بما يحقق لها بلوغ غايتها المنشودة في ضبط وترشيد نهضتنا الحضارية الشاملة.

ومن قبل ذلك الهدف ومن بعده ، فإن تحقيق إسلامية النظام التعليمي ، وهو المدخل الشرطي الجوهري ، لتحقيق التنمية الشاملة في الأمة ، لأنها السبيل الطبيعية لتكوين الجيل المسلم القادر علي تجسيد طموحات الأمة نحو النهضة والتقدم، لأنها – ببساطة ووضوح – الوحيدة التي تضمن حصانة الشخصية الإنسانية المسلمة من ازدواجية العقل، وازدواجية الوجدان، والفصام العقلي الوجداني، إضافة إلي كونها الوحيدة القادرة علي تحقيق التواصل الحضاري بين ماضي الأمة وحاضرها في اتساق طبيعي غير متعسف، والوحيدة – أيضا – التي تضمن شحن الكبرياء الراشدة في النفس المسلمة، بما يحقق حضور الهاجس الرسالي النهضوي علي الدوام في مقدمة هموم المجتمع المسلم.

ولعله مما يثير الارتياب لدي الباحث الإسلامي المعاصر، وهو يحول في مجهودات التجديد والتطوير في نظمنا التعليمية والتربوية، منذ مطالع ما يعرف « بالنهضة الحديثة »، أن الهّم التجديدي في هذا المجال، كان ينصرف– بصفة دائمة– إلي جزئيات غامضة أو مثيرة للجدل ، أو هي– علي الأقل– ليست من صميم ألازمة وأعمدتها، في حين يبتعد ذلك الهم التجديدي، عن التوجه إلي صميم المشكلة، وجوهرها، ومحورها الأساسي.

وعلي سبيل المثال، فقد كانت من أولي القضايا التي أثارتها حركة التجديد التربوي في نهضتنا الحديثة، قضية «**تعليم المرأة** »، ولقد استغرق الجدل الدائر حول هذه «**الجزئية** » من الزمن والجهد والأعصاب، أضعاف أضعاف ما أستغرقه البحث في «**أصالة نظامنا التعليمي** » من حيث الأساس،**ومدي استقلالية منهجيتنا التربوية العامة**، والأكثر إثارة للريبة والتوجس في هذا المجال،أن من طرحوا هذه الجزئية علي الواقع الإسلامي التربوي الحديث، قد حرصوا كل الحرص ، علي ربطها بذيول لازمة، ليست بلازمة،

كربطهم تعليم المرأة بالاختلاط والسفور، مما عكس – في المقابل – آراء حادة دعت إلي رفض تعليم المرأة بالكلية!

هل نقول ، بأن الأمر كان مخططا ومدروساً لصرف الفكر الإسلامي المعاصر، عن معالجة صميم أزمته التربوية، وحل جوهر مشكلاته المربكة لنظامه التعليمي؟

علي كل حال، فإن بين أيدينا الآن دراسة الأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار عن «**أزمة التعليم المعاصر.. وحلولها الإسلامية**» ، **وهي تمثل المدخل الصحيح والراشد لمعالجة مشكلات التربية والتعليم في ديار الإسلام لأنها لا تتجاوز البحث التاريخي ، إلي طرح الحلول الواقعية، وتجعل البحث التاريخي جزءا من مشروع الحل الإسلامي ، كما أنها تتجاوز القضايا الجزئية، إلي طرح الأصول العامة، والمنهجية العامة، واستراتجية الحل، وتجعل علاج هذه القضايا الجزئية من خلال ضبط وترشيد الأطر العامة للحل الإسلامي**، ثم إن هذه الدراسة–من قبل ذلك– تأتي من باحث إسلامي ليس بعيداً عن هموم الأزمة التعليمية في ديار الإسلام، ولا سيما علي صعيد الممارسة.

ويبقي أن نشير إلي أن قاريء هذه الدراسة، سوف يلاحظ **أن الكثير من أفكارها، ولا سيما في مبحث «استراتيجية التربية الإسلامية»** قد جاءت أقرب ما تكون إلي الروح الثورية، والتبديل الجذري، مما قد يتوهم معه البعض، بعد هذه الحلول عن الواقعية، إلا أننا نؤكد، بأن النظر الشامل، وملاحظة التاريخ القريب، يجعلنا نوقن بأن مثل هذه «الجذرية» – في ظروف معينة – تكون هي الحل الواقعي الممكن، والوحيد، وهذا ما نظنه في أفكار تلكم الدراسة الجادة.

دكتور

طه جابر العلواني

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـة

على الرغم من التوسع الملحوظ فى التعليم بمختلف مستوياته فى جميع دول العالم – على تباين ظروفها الاقتصادية والسكانية والثقافية والسياسية – ، وعلى الرغم من التطور المستمر فى طرائق التعليم، والتقدم فى توفير وسائله واحتياجاته، وتكدس المؤلفات التى تعالج مختلف قضاياه، فإن العالم يعيش اليوم أزمة تعليمية حقيقية تفوق فى حدتها الأزمات السياسية والعسكرية التى تجتاح عالم اليوم بقيادة الدول الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها والذين يدورون فى فلكها، وإن بدت أزمة التعليم فى مظهرها أقل خطراً، وأقل استجلابا للانتباه.

وأزمة التعليم المعاصر تختلف فى شكلها وحدتها من دولة إلى أخرى، إلا أن آثارها تنعكس بوضوح على كل الشعوب، مهما تباينت ظروفها.

وهذه الأزمة يراها البعض فى تزايد مجموع أعداد الأميين البالغين فى العالم بسبب عدم مسايرة التوسع فى التعليم للنمو السكانى المستمر خاصة فى الدول النامية، ويراها البعض الآخر فى تدنى مستوى المتعلمين، ومن هنا يؤثر البدء بإعادة النظر فى العملية التربوية ذاتها حتى يمكن النهوض بها نوعاً قبل التوسع فيها كماً، ويرى لذلك ضرورة العمل على تجديد عملية التربية: فلسفة، وأهدافا، وأسسا، ومنهجية، وطرائق، ووسائل ومحتوى، والعمل على تحسين نوعية القائمين عليها أساتذة وإداريين والمتلقين لها طالبات وطلابا.

فالأزمة تنعكس بوضوح شديد فى الزيادة المطردة لأعداد الأميين البالغين كما تنعكس بوضوح أشد فى الزيادة المطردة لنوازع الشر فى الإنسان المتعلم، وميله إلى العنف، وفشله فى فهم رسالته فى هذه الحياة كإنسان، وفى تحقيق

شيء منها، وفى تفشى الفساد والتحلل الأخلاقى والسلوكى يوما بعد يوم، فى انحدار مستمر فى مختلف مجتمعاته وخلوها من الثقافة، وهذه سمات أصبحت تميز عصرنا بصفة عامة، وتميز الإنسان والإنسان المتعلم بصفة خاصة، والمجتمعات التى تدعى أنها مجتمعات متحضرة بصفة أخص.

وانتشار التحلل الأخلاقى فى عالم اليوم – بصفة عامة – وفى الدول المتقدمة علميا وتقنيا – بصفة خاصة – وسط انفجار حقيقى فى المعرفة، وتوسع ملحوظ فى عملية التعليم لم يسبق لهما مثيل فى تاريخ البشرية، وإن دل على شيء فإنما يدل على فشل العملية التعليمية ذاتها، ويتمثل هذا الفشل بجلاء فى موجات التحلل الأخلاقى والسلوكى بين الطلاب من الجنسين، وميلهم للعنف، والفوضى، وللسلوك غير المنضبط، وانخراطهم فى العديد من حركات الانحراف الجنسى بمختلف أشكاله وصوره، وجماعات إدمان المخدرات والمسكرات، وحركات رفض الدين، وعبادة الشيطان، وتشويه الخلقة، والتعرى الفاضح فى داخل المؤسسات التربوية، والعلاقات غير المشروعة بين الطلبة والطالبات، وبين المعلمين والمعلمات والإداريين والإداريات، وما ينتج عن ذلك من الأزمات الاجتماعية والنفسية ومنها العديد من حالات الضيق، والضياع، والكبت، والحيرة، والأنانية، والقسوة، وغيرها من الأعراض النفسية والعقلية التى قد تصل بالمرء إلى حد الجنون أو القتل العمد أو الانتحار.

ولا غرابة فى ذلك فقد أصبح الحصول على المؤهل هو الغاية المرجوة من الدراسة – وليس التعليم فى حد ذاته – وأتى الامتحان فى المقام الأول قبل التعليم، وصار الغش فيه أمراً شائعاً له كل المبررات عند الطلاب والطالبات!!!

كذلك فقد الأستاذ صفات القدوة الحسنة ففقد دوره القيادى الرائد، وبذلك ضاعت الصفات الأساسية لكل من المعلم والمتعلم، فخرج حاملو الشهادات إلي الحياة وبغير تربية صحيحة، وقد أدى ذلك إلى تحلل كل من الرجل والمرأة، وانهيار مؤسسة الأسرة، وشيوع المخادنة والمعاشرة بغير زواج، وتفشى الزنا والشذوذ الجنسى، والإعلان بالفواحش التى أدت إلى فساد المجتمعات فساداً

شائعا، حتى أصبحت الفاحشة علامة التحضر، وأصبح الربا هو أساس الاقتصاد الحديث، والميسر أحد المجالات الأساسية للبحوث الإحصائية وأضحت التجارة عملا مساوياً للتكتلات المالية الكبرى القائمة على ضياع الذمم والرغبة فى الاستغلال، وتفشى الرشوة وانعدام الأخلاق من أجل التحكم فى أقوات ومصالح الأفراد، وصارت السياسة مناورات غير أخلاقية، وأصبح تزوير الانتخابات لازمة ضرورية للوصول إلى كراسى الحكم وإلى المجالس النيابية والشورية، وأصبحت كل وسيلة لتحقيق ذلك مشروعة، وأصبحت الاستماتة فى الوصول إلى السلطة بأى طريق، وبأى ثمن أمرا مقبولا، واختلط العدل بالمصلحة الشخصية، وقيست صلات الناس بالمنافع المادية، وتحولت الحرية إلى الفوضى والتسيب والتعدى على حقوق الغير، وحلّ التوافق مع المجتمع محل القيم الأخلاقية السامية، وأصبح النجاح هو معيار الحق؛ القوة تصنعه وتحميه، وأصبحت الغاية تبرر الوسيلة، والالتزام بمبدأ ما جمود وعقم، فاختلت موازين الناس، وأدى كل ذلك إلى تحلل المجتمعات وتفككها وإضعافها إلى درجة أصبحت معها كلمتا الحق والباطل لا معنى لهما فى عالم تحكمه المادة والقوة الغاشمة فقط وما يصاحبهما من الأطماع والمخاوف، عالم يفتقر إلى قيادة الحكيم الصالح صاحب الرأى السديد !!!

وليس أدل على ذلك من محاولات القوى الكبرى فى عالم اليوم فرض هيمنتها على دول العالم الثالث بالقوة، وغزوها دون أدنى مبرر، وفتح منهجية للاستعمار الغربى من جديد، وتدمير حضارات عريقة، وقتل وتشريد ملايين الأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء من أجل الطمع فى الاستيلاء على ثروات تلك الدول وذلك من مثل غزو الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها لكل من أفغانستان والعراق، ودعمهم المعلن وغير المحدود للاحتلال الصهيونى لأرض فلسطين، ومؤامراتهم المستترة والظاهرة من أجل تحقيق الاضطرابات والمظالم المختلفة فى العالم.

ويعود ذلك كله إلى أن التعليم المعاصر قد أصبح خاليا من الأخلاق والقيم، وخلوا من الروح والتربية الروحية، وتعليم هذه فلسفته لا يساعد المتعلم إلا على النمو بقدراته المادية فقط، وإن تم له ذلك فإنه يتم على حساب ملكاته الروحية

والنفسية، والتزامه الأخلاقى والدينى، وذلك يخرجه عن الفطرة الإنسانية السوية المتزنة بين مادة وروح. وإنسان هذه حالته يشكّل خطراً حقيقياً على نفسه وعلى الحياة كلها من حواليه، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى قيام القوات الصربية الغاشمة بتدمير الحضارة الإسلامية فى البلقان بهدم آلاف المساكن والمساجد والمدارس والكليات والجامعات والمتاحف والمكتبات وبقتل عشرات الآلاف من المدنيين من الأطفال والنساء والشيوخ والشبان وبدفن أكثر من عشرة آلاف مسلم أحياء فى مدينة سيريبرانيتسيا تحت مسمع ومرأى القوات الهولندية التابعة للأمم المتحدة، بالإضافة إلى الاعتداء على أعراض آلاف من النساء وقتل وتشريد مئات الآلاف من الأطفال والنساء، والشيوخ. وأمثال ذلك وأكثر منه يحدث على أرض فلسطين الجريحة على مدى أكثر من خمسين سنة والأرض المباركة تغرق كل يوم فى بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار: تهدم البيوت والمدارس والمساجد والمستشفيات والكليات والجامعات، وتجرف الأراضى الزراعية وتنشر الأشجار المثمرة وتصادر الأراضى من أيدى أصحابها وتخرج أدوات الحرب العاتية لاغتيال رموز الجهاد من أمثال الشيخ أحمد ياسين، والدكتور عبد العزيز الرنتيسى ورفاقهما، دون أدنى استنكار من دول العالم التى تدعى زورا الدفاع عن حقوق وحريات الإنسان، بل تصف تلك الجرائم بأنها دفاع عن النفس. وتكفى فى ذلك الإشارة أيضا إلى حجم المخزون من أسلحة الدمار الشامل عند كل من الدول الصناعية الكبرى والكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين.

ومن هنا يتضح أن أزمة التعليم المعاصر لا تتحدد فى تزايد عدد الأميين البالغين فى العالم فقط، بل تتمثل أخطارها فى تزايد تحلل الإنسان بصفة عامة، والإنسان المتعلم بصفة خاصة؛ ويكفى فى ذلك نظرة خاطفة إلى تاريخ عالمنا الحديث واسترجاع الجرائم التى اقترفها الإنسان المتعلم في حق أخيه الإنسان، وهنا تبرز أشباح ضحايا الحربين العالميتين الأولى (١٩١٤ م – ١٩١٨ م) وكان من ضحاياها أكثر من ٨ر٥ مليون قتيل، وأكثر من ٢١ مليون جريح، والثانية (١٩٣٩ م – ١٩٤٥ م) وكان من ضحاياها أكثر من ٥٥ مليون قتيل وأكثر من

١٥٠ مليون جريح، بالإضافة إلى سنوات من البؤس والرعب والخوف والشقاء والدمار والغلاء، وندرة الغذاء والكساء عاشها العالم كله فى ظل هاتين الحربين العالميتين، ومدى الدمار والمآسى التى خلفته، والتى ترمز لهما بأبشع رمز قنبلتا هيروشيما وناجازاكى الذريتين، ومعاهدتى فرساى وسايكس - بيكو الظالمتين، وما ترويه مأساة فلسطين، واجتياح أفغانستان المسلمة بجحافل الشيوعيين ثم بالغزاة الأنجلو أمريكيين، الذين استباحوا تلك الدولة العضو فى الأمم المتحدة، ثم استباحوا شقيقتها أرض العراق ضاربين عرض الحائط بقرارات كل من هيئة الأمم ومجلس الأمن، وبكل من القوانين والأعراف الدولية. ويرمز لهذه المظالم الدولية الكثير من الاعتداءات على حقوق الإنسان فى العديد من بلاد المسلمين ودول العالم الثالث وذلك من مثل حروب جنوب شرقى آسيا، ومآسى كل من جنوب أفريقيا وناميبيا وروديسيا، ومحاولة سحق شعوب المجر وتشيكوسلوفاكيا فى السنوات ١٩٥٦، ١٩٦٧م، على التوالى، والأزمة القبرصية، والمجازر البشرية فى كل من الاتحاد السوفيتى السابق، والصين، والهند، وجنوب كل من الفليبين وتايلاند وسيرلانكا، وفى العديد من الدول الأفريقية، من مثل رواندە وبوروندى، والدول العربية من مثل سوريا ولبنان وفى عدد من الدول الغربية من مثل شمال أيرلندة، والياسك فى كل من جنوب فرنسا وشمال أسبانيا.

ويكفى أن يحضر الإنسان أحد الاجتماعات الدولية ليرى سلوك ممثلى حكومات العالم، ويحكم على المستوى الذى تدنى إليه الإنسان المتعلم، ويكفيه أن يتفحص حياة بعض القادة المعاصرين (انظر على سبيل المثال فضائح البيت الأبيض التى تم كشفها فى عدد من المؤلفات التى صدرت أخيراً مثل أسطورة كنيدى المعنوية «The Dark Sidc Of Camelot» لمؤلفها نلسون تومبسون « Nilson Tompson» وقصة عزل رتشاد نكسون المعنونة «The Breach Of Fairh» لمؤلفها ت.هـ. وايت «T.H White»، وفضيحة الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون ومونيكا لوينسكى. وفضيحة مقتل الأميرة ديانا زوجة ولى عهد بريطانيا، وسلوكيات كل من رئيس الولايات المتحدة الحالى جورج بوش الإبن،

ورئيس وزراء بريطانيا الحالى تونى بلير المشينة، وكذبهما المتعمد على شعبيهما بأن العراق لديه أسلحة دمار شامل من أجل تبرير غزو جيوشهما لدولة ذات حضارة عريقة، وعضو فى الأمم المتحدة، متجاوزين بذلك كل القوانين الدولية، والأعراف، والأخلاق والقيم المجمع عليها دون أدنى مبرر حقيقى. كما تكفى الإشارة إلى ما قامت به قوات هاتين الدولتين اللتين تدعيان حماية حرية وحقوق الإنسان من تعذيب للأسرى والمعتقلين فى سجون كل من العراق وأفغانستان، وجوانتانامو وفى غيرها من سجون العالم التى اتخذتها الولايات المتحدة فى العديد من الدول الأوروبية ودول العالم الثالث، تعذيبا وحشيا تعدى على حقوق وكرامة الإنسان بطريقة تصف الحضارة الغربية المعاصرة بأحط الصفات وبأنها حضارة خالية من أبسط قواعد الدين والأخلاق والإنسانية، والصور القليلة التى نشرت لتعذيب المعتقلين فى تلك السجون ولاستخدام الأسلحة المحرمة دوليا ضد المدنيين ستبقى وصمة عار فى جبين الغربيين إلى يوم الدين، وهم الذين يتشدقون كذبا بحماية حقوق الإنسان ويدعون كذبا إلى الحرية والديموقراطية وهم فى الواقع أبعد ما يكونون عن ذلك.

كذلك تكفى لمحة خاطفة لما يدور فى عالم الاستخبارات الدولية وعصاباتها، من مثل ما يقوم به كل من أجهزة الاستخبارات الأمريكية والإسرائيلية فى المنطقة العربية، أو التجوال فى عدد من الأقطار التى يحكمها اليوم عتاة دكتاتوريون، وما أكثرهم، أو تفحص ملفات أى بيت من بيوت الأعمال التجارية الكبرى، فحيثما وجه الإنسان ناظريه يرى الشر، والفساد، والعنف والظلم، والخيانة، والخداع، والمراوغة، والزيف، والتسيب، والانتهازية، والرشوة، والمحسوبية، وانعدام كل صورة من صور الفضيلة قد أصبح أمراً سائداً، فى عالم اليوم، وفى موجة المد غير الأخلاقى هذه لا يمكن للإنسان أن يستثنى أحداً من البشر فضلا عن الملوك ورؤساء الدول الذين نذكر منهم - على سبيل المثال لا الحصر - فضائح الرؤساء الأمريكيين كنيدى، وجونسون، ونيكسون وكلينتون وبوش الأب والابن والرئيسان الإيطاليان برلوسكونى وجيوفانى ليونى، والإمبراطور بوكاسا إمبراطور أفريقيا الوسطى السابق، ولا يمكن للدارس أن يستثنى من يسمون زورا بالأمراء

أو بالنبلاء ورؤساء الوزارات ونشير منهم – على سبيل المثال لا الحصر – إلى كل من الأمير برنارد زوج ملكة هولندة ورئيس وزراء اليابان السابق تاناكا ووزيرى الدفاع السابقين فى إيطاليا لونجى جوى، وماريو ناناس وتورطهما فى عملية الرشوة الشهيرة بفضيحة لوكهيد ونورثروب. ولا أن يستثنى الوزراء من أمثال بروفيومو وجون ستونهاوس وفضائحهما المخزية فى بريطانيا، ولا ممثلى الأمة فى مجالس النواب والشيوخ من أمثال عضو الكونجرس الأمريكى جون هاى «John Hay»(*) وفضائحه الشهيرة، وفضائح القس الأمريكى جيمى سوارجارت وآلاف غيره من رجال الكنيسة فى الغرب والشرق، وغير ذلك كثير مما يعتبر صورة مقززة للمستوى المتدنى الذى هبط إليه المتعلمون فى هذا العصر، فضلا عن أناس لهم دور سياسى قيادى بارز فى دول تدعى أنها تمثل قمة الحضارة المادية المعاصرة.

وهذه الحالات التى أشرنا إليها هى مجرد نماذج مما وصل إلى علم الناس من محيط الفساد المغرق الذى يجرف عالمنا المعاصر، إلا أنها كافية لإثارة عدد من الأسئلة المحيِّرة منها:

لماذا التعليم إذن؟ وماذا يمكن أن يقدم للإنسانية؟ وهل نحن نضيع وقتنا وجهودنا وأموالنا فى عملية خاسرة؟ هل التعليم وسيلة لغاية أم أنه غاية فى حد ذاته؟ وإذا كان كذلك فما هى الغاية من التعليم؟ وما هو الهدف من تعلم العلوم والتقنية؟ هل المقصود من تعلمهما زيادة تعقيد الحياة وتلوث البيئة وتكدس مخزون أسلحة الدمار الشامل؟ وهل نحن قد أهملنا الجانب الروحى فى الإنسان ولذا فنحن نعانى من طوفان المادة فى غيابه؟ هذه الأسئلة فى حد ذاتها تجسد أزمة التعليم المعاصرة وتستنهض أصحاب الهمم العالية من أجل إيجاد حلول عاجلة لها.

* * *

(*) انظر مجلتى تايم، نيوز ويك الأمريكيتين بتاريخ ١٤/٦/١٩٧٦ م صفحات ٢٥ – ٢٧، ٢٤ – ٢٦ على التوالى، وكذلك كتاب عشيقة جون هاى المسماة اليزابيث راى والمعنون "The Washington Fringe Benefit" by Elizabeth Ray.